



أثارت عملية جيش الإسلام في دمشق أمس جدلاً طويلاً وحواراً صاخباً لم يهدأ حتى الساعة. وهو حوار جيد جرّى أكثره في أجواء فكرية صحّية تبحث عن المصلحة والصواب، رغم أن بعض المشاركين فيه - من طرفِي الحوار - لم ينجووا من حدة لو تجردوا عنها لكان عرضُهم لأفكارهم أفضلاً وأكمل، وأحسب أنهم معذورون في حدّتهم لأن الواقع الذي يعيشونه - في دمشق وغوطتها - مُثقل بالمعاناة والآلام.

الذين لا يُعذرون ولا ينبعي السكوت عنهم هم المفترون من أعداء الثورة، بعضهم من شبيحة النظام وأكثربن من شبيحة داعش، الذين وجدوا في الجدل الدائر ثغرة نفذوا منها إلى ممارسة هوالية قديمة لهم هي الانتقاص من جيش الإسلام ورميه بالتهم والافتراءات الكاذبات، فرأيت أن الوقت قد حان لأدلي بشهادتي طال كتمانها في الجيش الذي كذب خصومه فأسموه جيش الانسحابات، ولأعمري إنه جيش الرباط والتضحيات، وإنه لواحدٌ من أهم القوى العسكرية في الثورة السورية، هو وأشقاؤه وشركاؤه في الرباط والجهاد: الاتحاد الإسلامي لأجناد الشام وحركة أحرار الشام وصقور الشام وجيش المجاهدين، وسائر الفصائل والكتائب المجاهدة في ديار الشام.

لجيش الإسلام عيب سأصفه بعد قليل، ولكنه بريء من التهم الأربع الكبرى التي يرميه بها أهل الأهواء، فإنهم يزعمون أنه جيش الانسحابات، ويتهمنوه بتخزين السلاح، وبالتقاعس عن فتح معركة دمشق، ويرمونه بالعمالة والارتباط بأعداء الثورة

في الخارج. وهي افتراطات متهافتة لا يحتاج جيش الإسلام إلى قلم ضعيف عاجز كفلي ليردّ عليها ويُثبت تهافتها، ولو لا أنني وجدت نفسي -بسبب مقالتي الأخيرة- داخل "ميدان الرماية" الذي يرمون منه جيش الإسلام لما كتبت هذه المقالة.

\* \* \*

فاما اتهام جيش الإسلام بأنه "جيش الانسحابات" فما رأينا إلا مرابطاً ثابتاً في واحدة من أهم وأصعب الجبهات، غوطة دمشق، مع بقية فصائل الغوطة المباركة وعلى رأسها الاتحاد الإسلامي لأجناد الشام. وما علمنا أنه انسحب من جبهة كان يستطيع الدفاع عنها، وما علمنا فصيلاً في سوريا كلها لم ينسحب من جبهة من الجبهات في وقت من الأوقات. **ولقد رأينا الفصائل المجاهدة كلها منسحة أحياناً ثم رأيناها كرارة في أحياناً أخرى، وليس هذا عيباً، إنما العيب هو العناد والمكابرة والتشبث بموقع محکوم عليه عسكرياً بالسقوط، فتفنی قوّة المسلمين في غير طائل.**

ويتهمون جيش الإسلام بأنه يخزن الأسلحة والذخائر. نعم، إنه يفعل ذلك، فما وجه التهمة في تخزين الذخيرة والسلاح؟ إنما هي تهمة سخيفة أطلقها داعشي أحمق ذات يوم فتقى بها منه أصحابه ليغدو حماقة. وإلا فماذا يتوقعون من فصيل مرابط في جبهة مساحتها أربعين كيلومتر مربع ويعيش فيها مليون إنسان؟ هل ينبغي أن يُخلّها المرابطون من السلاح حتى يبتلعها العدو في يوم وليلة؟ **إن الواحد من أفراد الناس ليخزن الطعام في بيته ليغدو أسرته في زمن الحصار، فكيف لا يخزن السلاح والذخيرة من عليه واجب ردّ العدو ومنعه من اختراق الحصار؟**

ثم إنهم يتهمون جيش الإسلام بالتقاعس عن تحرير دمشق، ويقولون إنه لو كان صادقاً لحررها منذ زمن. وهذا الاتهام لا يصدر إلا عن هواة أو مُفترضين. إن فصائل عظيمة في الشمال المحرر تكافد تعجز عن اقتحام مطار أو قاعدة عسكرية تحاصرها الشهور الطوال،وها هي داعش (التي أطلق أنصارها تلك الفربة على جيش الإسلام) عاجزة عن السيطرة على حقل نفطي مكشوف من الجهات الأربع وبعيد عن الإمداد والإسناد، عجزوا عن السيطرة عليه في تسعة أشهر من القتال، ورغم ذلك يعيرون على جيش الإسلام عجزه عن اقتحام القلعة الكبرى للنظام.

إن النظام يحتفظ في العاصمة والمناطق المحيطة بها بستة عشر قوتها الضاربة، وقد استعدّ لمواجهةٍ يعلم أنها آتيةٌ ذات يوم لا محالة، فخزن من الأسلحة والذخائر ما يكفي لمعركة تمتد لشهور طويلة، أما المجاهدون في الغوطة فإنهم بالكاد يملكون ما يرددون به جيش النظام الغازى عن الغوطة المحاصرة، **ولو أنهم فتحوا معركة دمشق بهذه الإمكانيات المتواضعة لفَيَت ذخائرهم في أسبوع، وتكون العاقبة - لا قدر الله - سقوط الغوطة واستباحتها وخسارة فرصة تحرير دمشق إلى الأبد.**

التهمة الرابعة التي يتهمون بها جيش الإسلام هي العمالة لجهات خارجية وتلقي الدعم والمساعدة منها. وهذه أخطر التهم على الإطلاق، ليس بحق جيش الإسلام وحده بل بحق الثورة كلها، لأن الذين يطلقونها يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتمية تحرّم كل مؤسسات الثورة العسكرية والإغاثية التي ترتبط كلها - دون استثناء - بمولين وداعمين خارج سوريا، وهو ارتباط حتمي في ثورة عزاء تواجه نظاماً يملك واحدة من أضخم المؤسسات القمعية في العالم ويملك قوة عسكرية هائلة وتدعمه دول كبيرة قوية دعماً غير محدود. وهل تلقي دعم محدود غير مشروط من قوى تتقاطع مصالحها مع الثورة أحياناً هو العمالة والخيانة، أم هو بيع النفط للنظام الذي تصنّعه داعش جهاراً بلا حياء؟

\* \* \*

كل ما يروّجه خصوم جيش الإسلام مما سردته آنفاً (وأكثرُ خصومه من الغلة) ليس سوى خرافات اكتسبت قدرًا كبيراً من المصداقية في أوساط السذج من الناس بسبب التكرار والتدوير المستمر، على منهج وزير الدعاية النازية المشهور غوبنلز:

اكذب واكذب حتى يصدقك الناس.

لكنَّ نفيتاً لكل تلك الافتراضات لا يعني أنَّ جيش الإسلام بريء من النقائص، بل إنَّ فيه عيباً كبيراً يشبه العيب الذي ننتقدُه في جبهة النصرة ونأخذُه عليها، وهو الميل إلى التفرد والاستقلال، مع اختلاف في درجة هذا العيب بين الطرفين. فإنَّ النصرة قد بلغت الغاية بالتفرد، ففارقَت الجماعة وعطلَت العمل الشرعي والقضائي المشتركة واستقلَّت بإصدار القوانين والزام جمهور الناس بها، أما جيش الإسلام فإنه جزءٌ من القيادة المشتركة في الغوطة الشرقية، وهو أيضاً جزءٌ من مجلس الشورى والقضاء الموحد، ولكنه يَجْنِح أحياناً إلى التفرد فيتحرك مستقلاً، وهذا هو أكبر انتقاد يوجهه إليه شركاؤه من بقية القوى الثورية والعسكرية في الغوطة.

على أنَّ هذا العيب لم يصل بجيش الإسلام إلى الخطير الأكبر لسبعين: أولئماً أنه لم يخالف الجماعة حتى عندما تصرف منفرداً مستقلاً، كما في حملته الأخيرة على جيش الأمة في الغوطة. فقد بادر بالحركة منفرداً معتقداً على قرار شوريٍّ جماعيٍّ، فأخطأ وأصاب، وخطأ أكبر من صوابه؛ أصاب بتوافق حركته مع الرأي الجماعي، وأخطأ بالانفراد وإقصاء بقية فسائل القيادة المشتركة عن الحملة (ولعل عملية إطلاق الصواريخ الأخيرة على دمشق تدخل في الباب نفسه). الضابط الثاني الذي يخفف من خطر الفريدة بالعمل والاستبداد بالرأي هو قابلية جيش الإسلام وقادته الشيخ زهران لسماع النصيحة واستعداده للتراجع عمّا يراجّع فيه من تجاوزات وتفردات، وقد تابعت مشكلات كثيرة انتهت نهايات حميده بسبب هذه الخصلة الرشيدة.

\* \* \*

هذه شهادتي في جيش الإسلام، وسوف أختتمها بنصيحة أقدمها له، ولن يزعجه تقديمها علانيةً بإذن الله: إنَّ لجيش الإسلام محبة وقبولاً في قلوب الناس، وهو يزيد رصيده من المحبة باحترام جمهوره واحترام شركائه في الميدان. فأما الجمهور فيحتاج إلى التعامل الرافي الذي يَصون كرامة الأفراد وحربيتهم ويُثبت أنَّ الإسلام معاملة وإنسان قبل أن يكون رياض وشعارات. وأما الشركاء فلهم على جيش الإسلام حق الأخوة والشراكة الكاملة، وأهمَّ تبعاتها الخضوعُ الكامل للشوري والالتزامُ بالعمل المشترك.

إنَّ الذي يتواضع لإخوانه ويُلزم نفسه بالشوري – ولو خالفت رأيه – قد يخسر جولة أو بعض جولات، ولكنَّ أرباحه ومكاسبه ستكون أضعافاً أضعافاً ما يخسره لا محالة، فإنَّ الناس عبيدٌ لمن أحسن إليهم، وإنَّ اللذين ليصنع في الوقت القصير ما لا يصنعه العنف في أطول الأوقات، ومنْ خفض إخوانه جناحه خفض إخوانه له أجنحته وتألفت عليه القلوب.

الزلزال السوري

المصادر: